

**مفهوم 'القوة الإنجازية' في التحليل التداولي للخطاب
ومساهمتها في ضبط مفهوم المقصد**

**The concept of the power of realizationism in the pragmatic
discourse analysis and its role in determining
intentionality**

د. عصام عرعاري

**كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
تونس**

issamaraari@gmail.com



مفهوم "القوة الإنجازية" في التحليل التداولي للخطاب ومساهمتها في ضبط مفهوم المقصد

د. عصام عرعاري

الملخص:

تعتبر قضية البحث عن المعنى قضية قديمة جديدة في الوقت ذاته. وفي هذا الإطار انتشر مفهوم المقصد أو المقصد ليسع دوائر دقيقة تشمل العلوم الإنسانية كالفلسفة وعلم النفس وعلم الذكاء الإصطناعي والتداولية والعرفانية. فقد شغلت هذه القضية علماء الفكر العربي والغربي الذين كرسوا جهودهم الفكرية وأبحاثهم العلمية لصياغة منظومة مفاهيمية تبني عليها من أجل المساهمة في إرساء أسس تحليل الخطاب وبناء المعنى. ولم تكن هذه الدراسات معزولة عن القراءات والمناهج الأخرى كعلم اللغة وعلم النحو.

وفي هذا الإطار أصبحنا نتحدث عن المنهج التداولي القائم على ربط المناسبة في الخطاب بالسياق والاستعمال الخاص للغة من قبل المتكلم، "فلم نعد نبحت عن معنى الكلمة بل أصبحنا نبحت عن استعمالها". وقد ركّز هذا المنهج على عملية تأويل الخطاب، معتبرا أنّها ليست مجرد تحليل للبنية السطحية للخطاب وفكّ شفرتها اللغوية، بل الانسجام اللغوي يحتوي ضرورة على توجيهات وإشارات وقوى قولية يضمّنها المتكلم في كلامه لتوجيه المتلقي ومساعدته على تأويل الخطاب تأويلا يقوده إلى معان ومقاصد. ومختلف هذه الأفكار تمثّل جوهر هذه الورقة البحثية التي تبحت في مفهوم القوة الإنجازية اللغوية أو الإشارات السياقية التي تساهم في ضبط المقصد.

الكلمات المفتاحية: القوة، الإنجازية، التحليل، التداولي، الخطاب، المقصد.

Abstract:

the question of looking for meaning is considered as both an old and a new one. In this framework, the concept of intentionality has prevailed and encompassed more precise and more comprehensive domains of certain humanities such as philosophy, psychology, artificial, intelligence, pragmatics and Gnosticism. Therefore, this question has amused scholars from both western and Arab schools of thought, who devoted their mental efforts and scientific researches in order to establish a conceptual system to rely on in order to be part in setting basics of discourse analysis and the building of meaning. And these studies have not been separated from other readings and methodologies such as linguistics and grammatology.

In this context, we started talking about pragmatic methodology that is based on relating the discursive occasion to the context and to the speaker's specific use of language. "We no longer look for the meaning of the word but for the use of it". There has been a focus on discourse analysis as not being merely an analysis of the discourse's superficial structure and a linguistic deciphering of it. Linguistic conformity should involve instructions, hints and verbal power included in the speaker's words to guide the listener and help him interpret the discourse in a way that creates meanings and intentions. The above different ideas are the subject matter of this research paper that tackles the linguistic power of realization, implication, or its conceptualization and its role in creating intention.

Keywords: power, realizationism, analysis, pragmatic, discourse, intention.

1- مقدمة:

من الأهداف المتوخاة من استعمال المتكلم كلمة أو لفظة ما في خطابه، هو حمل المستمع على الوصول إلى المعنى المطلوب، وإقناعه بفكرة أو رأي معين. وهذا الأمر لن يتأتى ما لم تتم الإحاطة بأدبيات التّواصل

الشّفوي أو الإشاري وقوانينه، إذ أنّ ضبط المادّة وحدها لا يكفي، بل ينبغي الحرص على تقديمها بلغة تُثبت لها قوتها الإنجازية الإقناعية والتأثيرية.

وقد كنّا تطرّقنا في بحوث سابقة إلى مفهوم القوة (Force) ولاسيما فيما يتعلّق بمصطلح القوة المتضمّنة في القول عند "سورل" (Searle) من خلال تقسيمه العمل اللّغوي الإنجازي إلى أربعة عناصر، فعل القول، والمحتوى القضوي، والقوة المتضمّنة في القول، والفعل التّأثيري، وتقسيمه البنية الإعرابية للجملّة إلى عنصرين، المحتوى القضوي، والقوة المتضمّنة في القول. وقد بيّن أنّ القضية التي يعبر عنها المتكلّم مزيج بين الإسناد الأصلي الذي يمثّله واسمُ القوة المتضمّنة في القول، والإسناد الفرعي الذي يمثّله واسم المحتوى القضوي، مثال:

- "من فضلك أغلق النّافذة": فواسمُ القوة المتضمّنة في القول يتمثّل في "من فضلك"، وواسم المحتوى القضوي "أغلق الباب".

ومن هذه الاستنتاجات الأولى نسعى إلى ضبط مفهوم القوة الإنجازية وشروطها أوّلاً، وعلاماتها ووسائلها ثانياً. واهتمامنا بهذا المفهوم نابع من وعينا بمدى أهميته في بناء الخطاب وتأويل المعنى. وتبعاً لهذا تأسّس افتراضنا كالآتي:

لنفترض أنّ لكلّ قول قوّة، ولكلّ قوّة مقصد ومعنى استلزاميّ هو الذي نطلبه من الكلام ونفهمه من السّياق.

ولنفترض أنّ الغرض من التخاطب يحكمه منطق القوة أولاً والمناسبة ثانياً.

بناء على هاتين الفرضيتين نطرح الإشكالية التّالية: ماهو مفهوم القوة الإنجازية؟ وكيف تساهم في ضبط المقصد من الخطاب؟

2- مفهوم القوة الإنجازية وشروطها:

للإجابة عن الفرضيتين السّابقتين وجب تحديد مفهوم القوة الإنجازية، فالمقصود بها لدى "أوستين" و"سورل": تلك «الوظيفة التي يحقّقها القول عند استعماله»¹، وعليه، «القوّة الإنجازية لقول ما، هي جزء من بنيته التداولية»².

والملاحظ هنا أنّ مفهوم القوة الإنجازية قد ارتبط بمفهوم الاستعمال، وفي هذا السّياق يمكن أن نطلق عليها "القوّة الإنجازية الاستلزامية" التي نتوصّل إليها عن طريق إدراجنا لما نقول أو نتلقّظ به في مقام معيّن يُضفي على قولنا مقصداً محدّداً تتولّد قوته التّعبيرية والإفهامية طبقاً لملازمات ذلك المقام الذي أنجز فيه الكلام. ولا يمكننا أن نبلغ المعنى المراد إلاّ عبر عمليّات ذهنيّة استدلالية تأويلية تتطلّب وقتاً طويلاً نراعي فيه المعارف المشتركة بين المتخاطبين وكفاياتهم اللّغوية وغير اللّغوية والاجتماعية. وبهذا المعنى «مفهوم القوة

1- شكري المبخوت: "دائرة الأعمال اللغوية: مراجعات ومقترحات"، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط1، 2010، ص52.
2- حافظ إسماعيلي علوي: "التداوليات: علم استعمال اللّغة"، عالم الكتاب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2011، ص313.

هنا يحمل: معنى الطاقة المؤثرة، ومعنى القدرة على القيام بشيء مادّي أو ذهني... ولذلك تُعتبر القوّة سبب وجود الكلام وتكوّن البنية اللّغويّة بواسطة شحن معنويّة»¹.

إنّ المراد من القول غالبا ما يكون ضمنيًا، فمعظم الأقوال تثير معاني ثوانٍ يتدخّل السياق في تحديدها وضبطها، وتتدخّل "المناسبة" في بلورة قوّة مقصدها وغرضها.

«وعليه، فالمبدأ الذي يسمح باختيار التّأويل المناسب هو "الإصابيّة"، وهو مبدأ يجعل المتكلّم يختار من المعلومات المتعدّدة مجموعة من الفرضيّات التي تقتضي أن يكون فعله التّواصل مصحوبا بضمانة الملاءمة»². ومن هذا المنطلق تُعتبر المناسبة ركيزة أساسيّة لصحّة تأويل القول، بها نتوصّل إلى بناء استلزامات تكون هي المقصودة من البنى الحرفيّة المستعملة في سياق معيّن، ومن أمثلة هذه القوّة الإنجازيّة الاستلزاميّة نذكر:

- زيدٌ يسأل هندا: كيف تشعرين اليوم؟ كيف حالك؟

- دون أن تجيب، تُخرُجُ علبة أسبيرين:

لقد كانت هذه القرينة (علبة الأسبيرين) دليلا على عدم الشّعور بصحّة جيّدة بطريقة استدلاليّة استنتاجيّة³. وهذا المعنى تتدخّل في الوصول إليه: المعارف المشتركة بين "زيد" و"هند" حول "علبة الأسبيرين" باعتبارها دواء نستعمله عند المرض، إضافة إلى الحالة المسبقة التي كانت عليها "هند" قبل سؤال "زيد"، وهذه الملاحظات السّياقيّة الاجتماعيّة من شأنها أن تساعدنا على إحداث تأويل استلزامي تخاطبي مناسب. تأسيسا على ما تقدّم، «فالقوّة الإنجازيّة إذن هي الشدّة أو الضّعف اللذان يمكن أن يُعرّض بأحدهما غرض إنجازيّ واحد في سياق بعينه من سياقات استعمال المنطوق»⁴. وهذه القوّة الإنجازيّة الاستلزاميّة - حسب "غرايس (Grice)" - متأتية من احترام مبدأ التعاون وقواعده المتفرّعة عنه أولا، ومن افتراض أنّ المخاطب على بينة بالخطاب الذي ألقى إليه عبر معرفته بالمعنى المتواضع عليه من الألفاظ، والإدراك والاستنتاج المنطقيّين اللذين يقيّمهما ثانيا، ومن أمثلة ذلك:

1. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾⁵.

2. ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ؟﴾⁶.

3. هل تذهبُ معي إلى المسرح؟

1- شكري المبخوت، مرجع سابق، ص53.

2- عبد السلام عشير: "عندما نتواصل نغيّر: مقارنة تداوليّة معرفيّة لأليات التّواصل والحجاج"، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط2006، ص36.

3- المرجع نفسه، ص50.

4- حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص314.

5- سورة آل عمران، الآية 8.

6- سورة الشورى، الآية 44.

تتمثل القوة الإنجازية الاستلزامية على التوالي في: الدّعاء والطلب، تمّني العودة إلى الحياة، أمّا في المثال الثالث فتتمثل في الالتماس. وهذه القوى يتدخّل المقام في تحديدها، فهو الذي يوضّح ما يجب على المتكلّم فهمه وإدراكه.

إلى جانب هذه القوة الإنجازية، توجد قوّة أخرى تتعلّق بالملفوظ ذاته، والتي نطلق عليها مصطلح "القوة الإنجازية الحرفية" التي يمكن تحديدها بالأساس في الصيغة الدلالية الوضعية المجردة للملفوظ والقائمة على البنى النحوية المجردة. ويبرز في هذا السياق مفهوم الدلالة الصريحة للقول (العمل القولي) المتأتية من الجمع بين القوة المضمّنة في القول مع المحتوى القضوي، ونستدلّ عليها من قوّة المعطيات النحوية المتواضع عليها والمتعارف على مدى مناسبة بعضها لبعض، طبقاً لما يقتضيه العرف اللغوي الصحيح ونظام النحو وقواعده ونهج المناسبة والاعتبار المخصوصين.

والمقصود بـ"القوة الإنجازية الحرفية": كلّ الأسس والأحكام المتعلقة بالمقال، «فهي إذن القوة الدلالية المؤشّر لها بأدوات تصبّع الجملة بصيغة أسلوبية ما، كالاستفهام والأمر والنهي والتوكيد والنداء والإثبات»¹.
ومن أمثلة ذلك:

أ- أُذِن، فَأَصِْبْ مَعْنَا مِمَّا نَأْكُلُ.

ب- هل تَدْنُو، فَتُصِْبْ مَعْنَا مِمَّا نَأْكُلُ.

ج- أَلَا تَدْنُو، فَتُصِْبْ مَعْنَا مِمَّا نَأْكُلُ.

د- لو دَنُوتَ، فَأَصِْبْتَ مَعْنَا مِمَّا نَأْكُلُ.

تختلف هذه الأفعال الإنجازية في القوة التي يعرض بها غرض إنجازي ما (الطلب: الإصابة مَعْنَا مِمَّا نَأْكُلُ)، حيث عُرض الأول بقوة الأمر (أُذِنُ)، وعُرض الثاني بقوة الالتماس أو الدّعوة (هل تدنو)، وعُرض الثالث بقوة العرض (ألا تدنو)، وعُرض الرابع بقوة التمنيّ (لو دنوت)².

نستنتج إذن، أنّ البنية الحرفية (المقالية) للجملة والبنية الاستلزامية (السياقية) مهمتان في صياغة مفهوم القوة، فهي "قوة" يشترك فيها ما هو حرفيّ صريح مع ما هو ضمنيّ استلزاميّ سياقي، من أجل الحصول على استدلال وتاويل ناجحين نتوصّل من خلالهما إلى غرض المتكلّم من القول، وتحقيق الفائدة المقصودة مما يقال.

والجدير بالملاحظة أنه يمكننا عرض محتوى الجملة الواحدة بقوى إنجازية مختلفة وفي ملابسات استعمال متعدّدة مثال: صيغة الفعل في "أَغْلِقُ البابَ":

1- أَغْلِقُ البابَ، أَغْلِقُ البابَ.

2- أَغْلِقُ البابَ كما أفعلُ.

1- حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص 46.

2- المرجع نفسه، ص 314.

3- أَغْلِقِ البابَ إِنْ أَحْبَبْتَ.

4- نعم، إِذْنُ أَغْلِقْهُ.

5- أَغْلِقْهُ لَوْ اسْتَطَعْتَ¹.

الملاحظ في هذه الأمثلة الخمسة أنّ "أوستين" عبّر عن القضية نفسها (إغلاق الباب) بقوى إنجازيّة مختلفة، فالمثال الأول عبّر عنه بقوة الأمر، والثاني بقوة الإرشاد، والثالث بقوة الإباحة، والرابع بقوة الطلب، أمّا المثال الخامس فبقوة التهديد والوعيد. وكذا الشّان بالنّسبة إلى الأمثلة التالية:

أ- زيدٌ يدخّن كثيرا.

ب- هل يدخّن زيد كثيرا؟

ج- زيدٌ دَخَنَ كثيرا!

د- إلهي، ما أكثر ما دَخَنَ زيدٌ!².

فقد أنجز المثال الأول بقوة التأكيد، والمثال الثاني بقوة الاستفهام الذي أُشّر له بالأداة (هل)، والمثال الثالث بقوة الأمر (دَخَنَ)، والمثال الرابع بقوة التعجّب (إلهي).

والذي نستنتجه من هذه الأمثلة أنّ هذه القوة الموجّهة لمعنى القول ليس لها انفصال عن دلالة المحتوى القضوي الذي يمكن أن نوّشر له بجملة من الوسائل والأساليب المقويّة لمعناه المراد، «ومن بين هذه الأساليب للتأثير على القوة المضمّنة في القول نذكر: ترتيب الكلمات والنبرة والمحيط النغمي، ووسائل التّنعيط (التقاط المسترسلة، نقطة الاستفهام أو التّعجّب...)، ووجهة الفعل. وغالبا ما يتكفّل السّياق في مقامات التّخاطب الفعلية بتوضيح القوة المضمّنة في الكلام المميّزة لقول ما دون حاجة إلى استدعاء مؤشّر القوة الصّريح والمناسب»³.

وتقوم هذه المقاربة القضويّة المستلزمة لضروب القوة (الحرفيّة، الاستلزاميّة) على الوصف والتأويل، فما المحتوى القضوي إلّا تمثيل لأغراضنا ومقاصدنا، وكلّ قوّة هي تمثيل لإنجاز عمل ما بواسطة اللّغة، كقولنا مثلا:

1- أقترحُ أن نذهب معا للتّنزه.

2- أصرُّ على الدّهَاب معا للتّنزه.

فالقولان يشتركان في الغرض القولي أو المحتوى القضوي نفسه المؤشّر له بقولنا: "الدّهَاب معا للتّنزه"، ولكّهما يختلفان في القوّة: (أقترح، أصرّ)، فهاتان القوتان تختلفان من حيث درجتهما في الكلام، إذ أنّ قوّة

1- جون أوستين: "كيف ننجز الأشياء بالكلام؟"، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، ص91.

2- آن ريبول وجاك موشلار: "القاموس الموسوعي للتداوليّة"، ترجمة مجموعة من الأساتذة بإشراف عز الدين المجدوب، مراجعة خالد ميلاد، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا تونس، 2010، ص67-68.

3-John. R. Searle: Les actes de langage: "Essai de Philosophie du langage", Collection Savoir. Hermatan. Paris, 1972. P. 68.

الطلب في الجملة (2) أقوى من قوة الطلب في الجملة (1)، ومن ثمة فالقوة الإنجازية تتحدّد حرفياً/ مقالياً/ لفظياً.

تقوم القوة الإنجازية إذن على جملة من الشروط حددها شكري المبخوت في قوله:

1- قوة تكوّن البنية،

2- تركّب إليها بالنّظم قوة تمنح للبنية دلالتها الإنشائية البلاغية،

3- تنضاف إليها قوة ديناميكية رهينة استراتيجيات التخاطب.

وهو ما يوافق المستويات الثلاثة من اللّغة:

أ- المستوى الإعرابي الدلالي.

ب- المستوى النّظمي البلاغي.

ج- المستوى التخاطبي المقامي¹.

ومن أمثلة ذلك نذكر ما أورده "أوستين" في محاضراته:

- أهاجمّ عليك !

- أهاجمّ عليك ؟

- أهاجمّ عليك؟!².

وهذه الأمثلة الثلاثة تقريبا تشترك في المحتوى القضوي نفسه، ولكن الملاحظ فيها أنّ القوة الإنجازية تختلف وتتحدّد بتحدّد المقام، ذلك «أنه يفهم منه معاني متعدّدة»³، فيمكن أن تعني الجملة الأولى الإنذار، والجملة الثانية السّؤال، والجملة الثالثة الاحتجاج.

ومن هذا المنطلق نستنتج أنّ «تفسير كلّ من الغرض والقوة الإنجازيتين تفسيراً صحيحاً يعتمد على صيغة المنطوق اللّغوية، وعلى فهم الشّبكة الاجتماعية معاً»⁴.

و"القوة الإنجازية" في حقيقة الأمر هي التي تُضفي على ما نقول معنى صحيحاً مقصوداً، ذلك أنّ "سورل" اعتبرها جزءاً من بناء المعنى، حيث قسّم "القضية" المعبر عنها إلى عنصرين أساسيين، هما القوة المتضمّنة في القول والمحتوى القضوي.

«خلاصة القول إنّ القوة والغرض عنصران مكملان للمعنى، القوة درجة، والغرض وظيفة...، ولكلّ

غرض درجات مختلفة من القوة وفقاً لسياقات الاتّصال»⁵.

1- شكري المبخوت، مرجع سابق، ص 54.

2- جون أوستين، مرجع سابق، ص 92.

3- المرجع نفسه، ص 112.

4- حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص 315.

5- المرجع نفسه، ص 319.

هكذا يتكامل المعنى الحرفي مع المعنى الاستلزامي من أجل تحقيق الفائدة والوصول إلى المعنى المطلوب الذي يتناسب مع النظام الحرفي للكلام والاستعمال السياقي للتخاطب. «فقوة فعل الكلام إذن إنما هي راجعة لا إلى نتائج فعل الكلام، بل إلى مواصفات قوة فعل الكلام وعوائد التخاطب باعتبارها محمولة على قرائن الأحوال المخصوصة بمناسبة إصدار العبارة»¹.

معنى ذلك أن الدلالة حاصلة من الوضع التحوي (بنية القول) ونستدلّ عليها من خلال المعطيات النحويّة (صرفيّة، تركيبية، اشتقاقية، معجمية)، وحاصلة من الاستعمال السياقي، ونستدلّ عليها من ملابسات الخطاب والمعارف المشتركة بين المتخاطبين، ومن أمثلة ذلك نذكر:

1- أتذهبُ معي لمشاهدة الفيلم في دور العرض؟

2- الجوّ بارد، لديّ ارتباط مسبق، سأنتظرُ مشاهدته على شاشة التلفاز»².

الملاحظ في هذه المقاصد المضمّنة في الجواب الثاني أنها تحتوي على معانٍ أولي، نستدلّ عليها من المنطوق الحرفي (الجوّ بارد، الارتباط المسبق، مشاهدته على التلفاز)، وتحتوي أيضا على معانٍ ثواني تتميز بالإضمار والخفاء وهي المقصودة من كلّ عمليّة التخاطب، ونستدلّ على قوتها الإنجازيّة من السياق الذي قيل فيه هذا القول، ولذلك فهي تستلزم معنى تخاطبيا يتمثّل في "رفض الذهاب أو الاعتذار عن الذهاب".

ومن أمثلة ذلك أيضا:

أ- ألا تريد سماع كلامي؟

ب- اسمع ما سأقولهُ لك.

ففي المثال (أ) قد يتحوّل المعنى الحرفي لهذه الجملة من (الاستفهام) إلى معانٍ أخرى قد تكون تهديدا أو تأنيبا، وفي المثال (ب) قد تتحوّل الجملة من مجرد عبارة لإسداء النصّح أو جذب السامع للإنصات، إلى عبارة لتوجيه التّهديد أو إدخال الرّعب والخوف في المخاطب»³. وما اختلاف هذه الدلالات إلاّ اختلاف في:

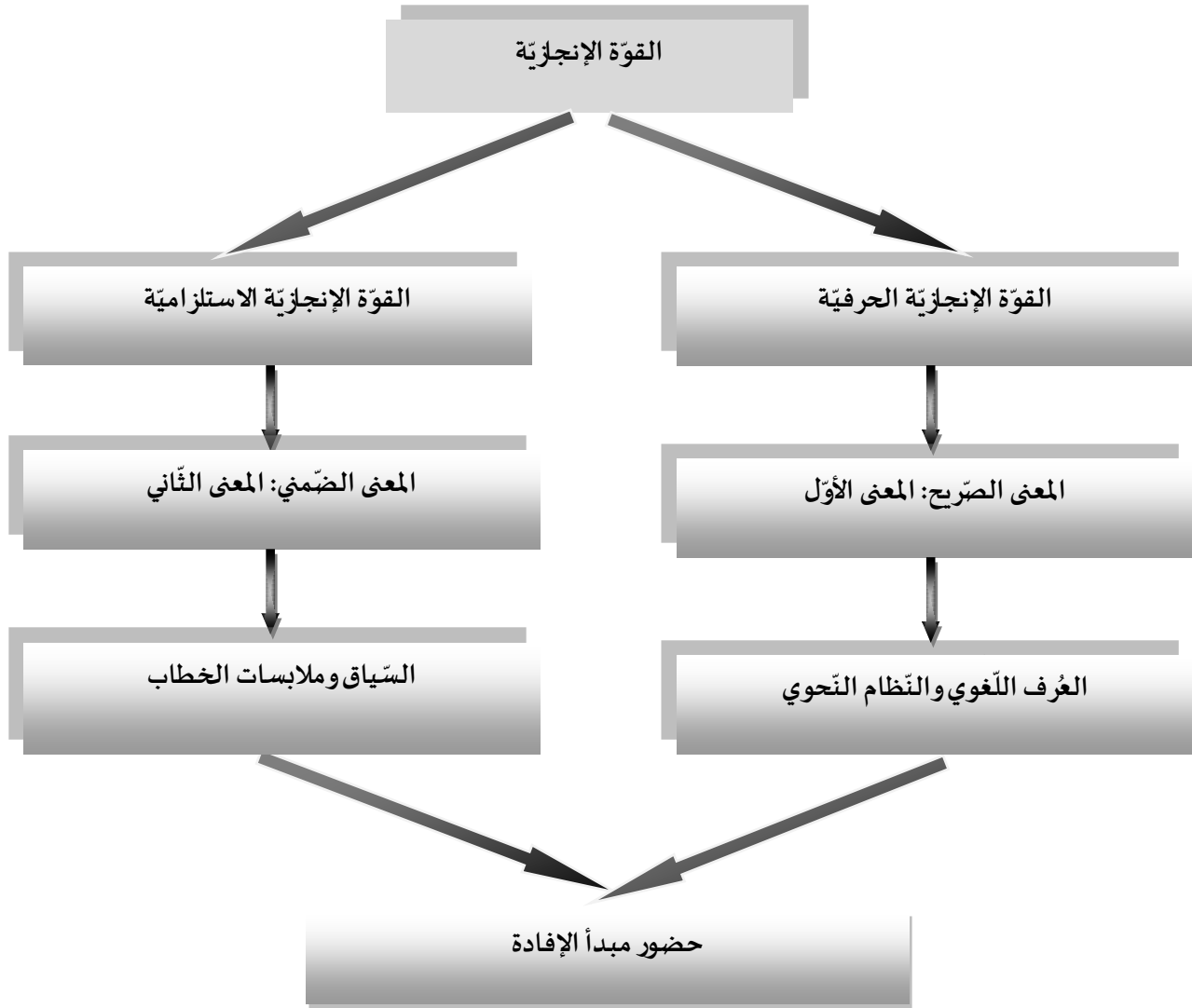
- القوى الحرفيّة للقول، فالجملة (أ) قوتها الاستفهام بالأداة (ألا)، والجملة (ب) قوتها في الأمر باستعمال الفعل (اسمع).

1- جون أوستين، مرجع سابق، ص 135.

2- مجموعة من الأكاديميين: "فلسفة اللّغة: قراءة في المنعطفات والحديثيات الكبرى"، إشراف اليامين بن تومي، ابن التّديم للتّشعر، دار الرّواقد الثّقافية، ناشرون، ط1، 2013، ص 37.

3- حسن خميس الملخ: "التداولية: ظلال المفهوم وآفاقه"، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2015، ص 39.

– القوى الاستلزامية للقول الناتجة عن ملابسات الخطاب والسياق الاجتماعي والثقافي الذي يجمع بين أطراف التحوار، فالجملة (أ) قد تكون تهديدا مثلا، والجملة (ب) قد تكون مُوجِّهة لإدخال الخوف أو الرعب، ومنثمّة تساهم هاتان القوتان في بلوغ الغرض من الكلام بلا لبس ولا غموض... ونُمثّل لهذه المراحل المختلفة من القوة الإنجازية التي تُساهم في فهمنا للمعنى من خلال الرّسم التالي:



لا غرو إذن أن يركز اهتمامهم على القوة الإنجازية في الكلام، فهي تساهم في إضفاء الدقّة والوضوح على ما نقول، ويقتضي ذلك أن تكون الاستراتيجيات (لغوية، غير لغوية) المستعملة، متواضعا عليها، وموظّفةً في السياق المطلوب حتى يحقّق القول الغرض المقصود منه، وتبعاً لهذا التقسيم الثنائي للوسائل سيكون تحليلنا في العنصرين المواليين.

فكيف تساهم الوسائل اللغوية في إضفاء قوّة على ما نقول؟ وكيف تدعّم الوسائل غير اللغوية فهمنا لما نقول؟ وأين تكمن مكانة "الإفادة" في جلّ هذه الوسائل؟

3- علامات القوة الإنجازية ووسائلها:

يسعى المتكلم في خطابه إلى استعمال جملة من العلامات والوسائل التي تخدم المقصد والمعنى الذي يطلبه. وتُضفي هذه الوسائل على خطابه قوة إنجازية تدعّمه طبقاً للسياق وملايسات الخطاب الذي يوجد فيه.

ومن بين هذه العلامات والوسائل المساهمة في ضبط مفهوم الإفادة وتعديل القوة الإنجازية نجد ما هو لغويّ يتعلّق بالجانب النظمي الحرفي من اللغة، وما هو خارج عن اللغة (كالإشارات، والحركات، والعلامات...)، وعلى هذا الأساس «فعندما يعدّل المتكلم من قوّة منطوقه الإنجازية، فإنّه يدلّل على وعيه بالمقصد وتقديره مقتضيات السياق... والمقصود بالتّعديل هنا تلطيف الخطاب، والتّلطيف استراتيجيّة يعتمدها المتكلم لتحقيق قوّة الفعل الكلامي أو إضعافها»¹.

أمّا الوسائل الإنجازية اللغوية للقوّة فتتعلّق بمستويات مختلفة تتمثّل في:

أ- المستوى الصّوتي (Le son): «فيُقصد بها نوع النّغمة، والنّبر وجهازة الصّوت... وهذه الوسائل جميعا وسائل فونولوجية توظّف في تقوية قوّة المنطوق»²، وتساهم بمساعدة السياق في توجيه المعنى وفهمه حسب الغرض التّواصلية، ذلك أنّه من خلال الصّوت الذي يرصد تغييرات شكل اللفظة ضمن تركيب معيّن وسياق خاصّ نتوصّل إلى الفروق المعنوية المقصودة من قولنا لشيء ما.

ومن آليات قوّة الصّوت نجد النّبر (L'accent) والتّنغيم (Le ton) أو التّلوين الموسيقي الذي يلعب دورا رئيسيّا في التمييز بين الأساليب الإنشائية والخبرية، وذلك عبر انخفاض الصّوت وارتفاعه أثناء عمليّة النّطق للتعبير عن المعاني المختلفة التي يروم المتكلم إيصالها إلى المتلقّي، ومن هذه الأصوات نجد ما هو مهموس وما هو مجهور، ولكلّ منهما خصائصه.

«ويُعدّ التّنغيم ظاهرة بارزة من بين الظواهر اللّسانية... وهو صفة مصاحبة للصّوت، إذ تجعل منه أكثر مرونة وأحسن أداء. والتّنغيم يختلف من سياق إلى آخر، فهو الذي يحدّد لنا الوظيفة التّواصلية للجمل المنطوقة من لدن المرسل، وبالتالي يساهم في تحويل المعاني الحرفية للجمل إلى معانٍ أخرى غير معناها الأصلي، تُفهم من خلال سياق ورودها»³. ومن أمثلة ذلك يقول الأستاذ لتلميذ مع نغمة حادة:

- ألا تريد أن تصمت وأنت داخل القاعة؟

فهذه النّغمة الحادة تنقلنا من المعنى الحرفي للجمل إلى المعنى الاستلزامي السياقي المتمثّل في التّهديد بالعقاب إن بقي على الحال التي هو عليها.

1- حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص 323-324.

2- المرجع نفسه، ص 331.

3- حسن خميس الملخ، مرجع سابق، ص 39.

ب- المستوى المعجمي: ونقصد بوسائل التقوية هذه «ما قد يستخدمه المتكلم من عناصر معجمية تضيف قوة على قوة المنطوق الإنجازية»¹، والمقصود هنا استعمال وحدات معجمية من شأنها أن تدعم الفكرة التي يريد المتكلم إبلاغها إلى المتلقي. ومن بين هذه الوسائل المتعلقة بالقوة نجد وسائل مخصصة للمتكلم كتوظيف مصطلحات من قبيل: "أنا واثق"، "أنا أمين"، "صراحة"... ومن أمثلة ذلك:

- صدقا، أنت صديق أمين.

- أنا واثق من صدقك وإخلاصك.

ف "صدقا" و "أنا واثق" وحدات معجمية تساهم في تدعيم ثقة المتلقي بالمتكلم، ومن ثمة الاطمئنان إلى ما يقوله ويورده من معانٍ.

وإلى جانب هذه الوحدات الموجبة إلى المتكلم، تتوقّر أيضا وحدات موجبة إلى المستمع، والمقصود بهذه العناصر المعجمية تلك الوحدات «التي تشير إشارة ضمنية أو صريحة إلى معرفة المستمع أو إلى المعلومة التي تصنع خلفية مشتركة بينه وبين المتكلم: "ما علمت، أنت تعرف، أنت تعلم...»⁽²⁾، مثال:

- أنت تعلم أنني لا أحب المراهنة.

- أنا لا أدخن، وأنت متيقن من هذا.

تعبّر الجملتان عن محتويين قضويين ("لا أحب المراهنة"، "لا أدخن")، وقد أضاف المتكلم إليهما بعض الوحدات المعجمية ("أنت تعلم"، "أنت متيقن") التي تتعلق بالمستمع والتي من شأنها أن تؤكد صحة القضية التي يعبر عنها وترسخها.

توجد بعض المقويات الأخرى التي تتعلق بالوسائل المعجمية في حد ذاتها، «وهي تُستخدم من أجل تقوية القوة الإنجازية للمنطوق بإثبات صحة القضية التي يعبر عنها، أو تأكيد صلاحيتها. وهذه الوسائل صيغ دالة على الحالة المعرفية المجردة عن مقولة الشخص والمؤكدة للمحتوى القضوي: "الواقع"، "من المؤكد"، "بالتأكيد"، "لا ريب"، "لا نزاع"، "لا جرم"، "الحق أن"، "حقا"...»³، ومثالنا على ذلك قولنا:

- حقًا أنت طالب مجتهد.

- لا ريب أنك طالب مجتهد.

- بالتأكيد أنت طالب مجتهد.

- أنت طالب مجتهد، ولا نزاع في هذا.

تعبّر هذه المنطوقات الإنجازية جميعا عن غرض إنجازي واحد وهو المدح، وتعبّر عن محتوى قضوي مشترك (طالب مجتهد)، وهي تختلف في درجات القوة المعبر بها عن القضية طبقا للسياق ومميزاته.

1- حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص 332.

2- المرجع نفسه، ص 333.

3- المرجع نفسه، ص 334.

ج- المستوى التركيبي: لتقوية الخطاب يسعى المتكلم إلى بناء نصّه بناءً محكماً منسجماً قوامه التّناسب والقوانين النّحويّة التي تضبط العلاقات بين الألفاظ والمعاني وتمتّتها، إذ أنّ الكلمات تنتظم داخل التّركيب لتكوّن كلاماً مفيداً تحصل منه فائدة. ويعود هذا التّناسب بين الألفاظ إلى «ائتلاف الكلمات فيما بينها واحتكامها إلى ضرب من العلاقات أو المبادئ الأساسيّة وهي عبارة عن جملة من الخصائص التركيبيّة، ومنها أيضاً الموقع (La position) والمصاحبة (Cooccurrence)، والاستبدال (La substitution) والفصل (La séparation) والتّوزيع (La distribution) والانتقاء والتّأليف (La sélection et la combinaison)»¹. وهذا البناء المحكم المتناسب مهمّ في فهمنا للمقصد.

نستنتج عموماً أنّ هذه المستويات المختلفة (الصّوتيّة والمعجميّة والتركيبيّة) تكوّن مجتمعةً ما عبّر عنه "أوستين" و"سورل": "الفعل اللفظي"، ذلك أنّ كلّ مستوى من هذه المستويات يزيد في قوّة المستوى الآخر خدمة لمقصد المتكلم وأغراضه من عمليّة التّحاور.

بالإضافة إلى هذه الوسائل اللّغويّة المستعملة لتقوية الخطاب نلاحظ توظيفاً «لوسائل الخارجة عن نطاق اللّغة كالدّلوكيات الحركيّة مثل الحركات الجسميّة، والأوضاع الجسميّة، وتغييرات العينين»². وتتأكّد فعاليتها من خلال استعمالها داخل الخطاب لتدعيم الأقوال الكلاميّة. يقول "أوستين (Austin)" في هذا السّياق محدّداً هذه الوسائل غير اللّغويّة: «قد يساعد التّلفّظ، استخدام الحركات والإشارات (من غمز بالعينين، وتحريك للأيدي، ورفع للكف، وتقطيب للوجه وعبوسه)، وأفعال طقوسية غير لفظيّة، وهذه الأنواع من التّعابير الحركيّة تُستخدم أحياناً دون أن يحرك الإنسان لسانه»³، ومن أمثلة هذه الوسائل:

- تقول الأمّ لابنها مع إشارة بالعصا: لا تتأخّر في العودة من المدرسة عند انتهاء الدّروس.
- فالمعنى اللفظيّ دغمته الإشارة بالعصا، وهذه الإشارة تحيلنا إلى معنى استلزامي تخاطبي يتمثّل في التّهديد أو التّنبية أو التّخويف، كذلك:
- يقول طالبٌ لزميله مع إشارة بالإصبع: هذا الكتاب مفيدٌ.
- وعليه، نقول إنّ هذه الوسائل غير اللّغويّة تساهم في تقوية التّلفّظ وتوكيد المعنى لدى كلّ من المتلقّي والمتكلم.
- «ومن بين الوسائل الأخرى نجد: وسائل التّنقيط»⁴، كنقاط الاستفهام أو التّعجب، مثلاً:
- زيدٌ يدخّن.

1- عبد الحميد عبد الواحد: "الكلمة في اللّسانيات الحديثة"، التّفسير الفّني صفاقس، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، صفاقس، 1، 2007، ص 147.

2- حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص 330.

3- جون أوستين، مرجع سابق، ص 93.

4- John J. Searle, Op, cit, p68.

- زيدٌ يدخنُ !

- أزيدٌ يدخنُ ؟

وقد أطلقت "نرجس باديس" على هذه الوسائل غير اللغوية مصطلح "المشيرات المقامية"، «فلئن كانت الأفعال الإنجازية تعكس عمل المتكلم اللغوي، فإن المشيرات المقامية تعكس فواعل المقام التخاطبي وتحيل على ما هو خارجي، فلا تتحدد إحالتها إلا باعتبار إجراء حدث التلقظ»¹.

والأساس الذي حاولنا إبرازه عموماً هو أنّ هذه الوسائل (اللغوية وغير اللغوية) تساهم في تدعيم القوة الإنجازية للقول، وهذه القوة الإنجازية يتدخل فيها "مبدأ المناسبة" (Principe de pertinence)، فهو حاضر في جلّ المستويات الصوتية، المعجمية، التركيبية، الإشارية، إذ أنه يمثل الخيط الرابط بين مختلف هذه المستويات واستعمالاتها في سياق التلقظ الذي يضطلع بدور مهمّ في بناء المقصد وتداولية المناسبة. فما هي خصائص العلاقة الرابطة بين هذه المفاهيم الأربعة؟ وأي منطق يحكمها؟

4- القوة والمقصد والسياق والمناسبة:

نفترض أولاً أنّ فعل التواصل رهين بنجاح قوة التقاصد، ونجاح قوة التقاصد مشروط بوجود السياق، والسياق لا يتحدد إلا بتدخل المناسبة.

ولتدعيم هذا الافتراض ضبطنا في العنصر السابق أهمّ وسائل القوة الإنجازية اللغوية وغير اللغوية. ونبرز في هذا العنصر مدى أهمية السياق في تعيين مقصد المتكلم وتفسيره في غالب الأحيان. ونظراً لأنّ المتكلم لا يقول ما يعنيه في العديد من المناسبات على نحو مباشر، فإنّ للسياق دوراً حاسماً في إرساء تأويل بعينه وفهم محدد لما يقول، وبهذا المعنى «يجب إذن ألاّ نعرف الجملة فقط، وإنّما أيضاً الوضعية التي استعملت فيها حتى نفهم ما كان يفعله متلقظها»². وعليه، فتجريد الكلام من سياقه قد يغيّر المعنى تماماً عن مقصده، إذ يتغيّر معنى التلقظ بحسب وضعيات الخطاب المختلفة التي تقدّم بعض المؤشرات على السلوك الكلامي فيتناسب البناء ويقوى.

«والمراد بمفهوم المقصد هو الغرض المرجو من طرف الخطاب والفائدة المستخلصة منه، ما دام المعنى لا يتحقّق إلا من خلال السياق والتعرّف على الطرف الذي أنتج فيه الكلام وتحديد مكوناته المادية والمعنوية»³.

والمؤول إذن لا يمكنه أن يفسّر الكلام بمجرد علمه بالألفاظ وحدها، بل لا بدّ أن ينظر بدقّة وإمعان في القول حتّى يعرف قصد المتكلم، ولكن كيف يتسنى للمتكلم افتراض أنّ المستمع سيتعرّف على القوة الإنجازية الوظيفية المقصودة من القول؟

1- نرجس باديس: "المشيرات المقامية في اللغة العربية"، مركز النشر الجامعي، منوبة-تونس، 2009، ص30.

2- Oswald Ducrot: "Les lois de discours on langue française", édition de Minuit, Paris, n°42, 1979, p22.

3- حسن خميس الملقح، مرجع سابق، ص.109-110.

ترى بعض النظريات الحديثة بصفة عامة والتداولية منها على وجه الخصوص، أن المعنى للمفوض ما لا يتحدّد إلا من خلال السياق الذي جاء فيه الكلام، فليس الكلام حالة مجردة أو معزولة عن الإطار السياقي التداولي «الذي يتكوّن من كلّ العوامل التّفسيّة والاجتماعيّة التي تحدّد نسقيًا لكي تلائم أفعال اللّسان، وتمثّل هذه الأفعال في المعرفة والرّغبات أو الإرادة والتّفصيل وحكم مستخدمي اللّغة وإنجازاتهم الاجتماعية من جهة أخرى»¹.

والسياق هنا عمليّة شاملة تضمّ كلّ ما يحيط بالخطاب من عناصر تساعد في ضبط المقصد الذي يتنوّع بتنوّع السياقات، والخطاب هنا لا يتحدّد معناه إلا من خلال السياق. وعلى هذا الأساس «تتصوّر تمثيلاً لمعالجة الخطاب يستند إلى تدرّجين متتاليين: يمرّ الأوّل من الجملة إلى الدّلالة ويمرّ الثاني من الدّلالة إلى المعنى؛ وحده التّمثي الثاني يأخذ بعين الاعتبار الإطار المحيط، في حين يحافظ التّمثي الأوّل في المعالجة على استقلاليّة الوضعيّات اللّسانية»².

إنّ اللّغة بما هي ظاهرة اجتماعيّة وأداة للتّواصل، تعبّر عن أغراض الجماعات النّاطقة بها، وتعبّر عن كفيّة التّواصل فيما بينها في سياق معيّن. ولا يمكن لعمليّة التّواصل هذه أن تتمّ بنجاح إلا إذا بلغت عمليّة الفهم مداها في تحديد المقاصد. ويُعتبر المقصد من أبرز العوامل التي تكوّن هذا السياق التّواصل، فهو - إن صحّت العبارة- الذي يودّي إلى بناء عمليّة الاستدلال والتّأويل، ويحرّك فهم المخاطب لبناء خطابه وفهم المتلقّي لبناء تأويل لذلك الخطاب في السياق الموقفي المحدّد، ومن أمثلة ذلك:

"أنت رجُل!"

لا بدّ من سياق موقفي يربط معناها القضيوي (رجل) بالفعل الإنجازي، كأن يكون ذلك الرجل متنكراً في زيّ امرأة مثلاً، فيكون قصدها من إثبات الرّجولة له بأنّ أمره قد افترض، وأنّ حيلته قد انكشفت... أو يكون في موقف يتطلّب الثّبات والصّبر، كأن يكون في ورطة أو تنزل به مصيبة فنواسيه أو نصّبّه بهذه الجملة³.

ونظراً لأهمية السياق في تحديد المقاصد، فقد قسّمه "ستيفان أولمان (Steven Olman)" في كتابه "دور الكلمة في العربيّة" إلى نوعين: سياق لغوي وسياق غير لغوي، مؤكّداً دور السياق في ضبط المعنى طبقاً لقوله: «السياق وحده هو الذي يستطيع أن يكشف لنا عن المقصود من هذه الكلمات»⁴.

تأسيساً على هذا، فإنّ المعوّل عليه في إبراز المقاصد وتحديد الدّلالات الدّقيقة، هو مراعاة التّفاعل القائم بين العناصر اللّغويّة التي تشكّل الخطاب من جهة، والظّروف والملايسات المحيطتين بالخطاب من جهة أخرى، مثال:

1- منذر عياشي: "العلاميّة وعلم النصّ"، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء-المغرب، ط1. 2004، ص172.
2- Oswald Ducrot: "Les lois de discours on langue française", édition de Minuit, Paris, N°42, 1979, p22.
3- حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص105.
4- ستيفن أولمان: "دور الكلمة في العربيّة"، ترجمة كمال محمّد بشر، مكتبة الشّباب، جامعة القاهرة (د.ت)، ص65.

«هل يمكن أن أبدأ المحاضرة؟»: يخبرهم ببدء المحاضرة، أو يطلب منهم السكوت إن كانوا يخوضون في حديث قبل ذلك بالرغم من دلالة الخطاب الحرفية»¹.

ويتمثل السياق اللغوي في «كل ما يحيط بالكلمة من عناصر لغوية توجه فهمنا لمعاني ملفوظ ما ودلالاته»²، مثلما هو الشأن في المثال السابق الذي يشير إلى معنى الاستفهام، وهو المعنى الأول والصريح للجملة التي تتكوّن من مستويات صوتية، معجمية، تركيبية، صرفية.

أما السياق غير اللغوي فهو «مجموع الظروف أو العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغوي، وهو المناخ أو الجو العام الذي يتم فيه الحدث الكلامي، فهو يشمل الزمان والمكان والمتكلم والسماع والأفعال التي يقومون بها، ومختلف الأشياء والحوادث التي لها صلة بالحدث الكلامي. ويتسع السياق ليشمل المعرفة المشتركة بين المتكلم والسماع لكل ما له علاقة بفهم المنطوق، كما يتسع ليشمل القبول الضمني من قبل المتكلم والسماع لكل الأعراف التي لها علاقة بالموضوع والاعتقادات والمسلّمات المعتدّ بها من قبل الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها المتكلم والسماع»³، ونذكر في هذا الإطار المثال التالي:

- إني مُرهقٌ جدًّا:

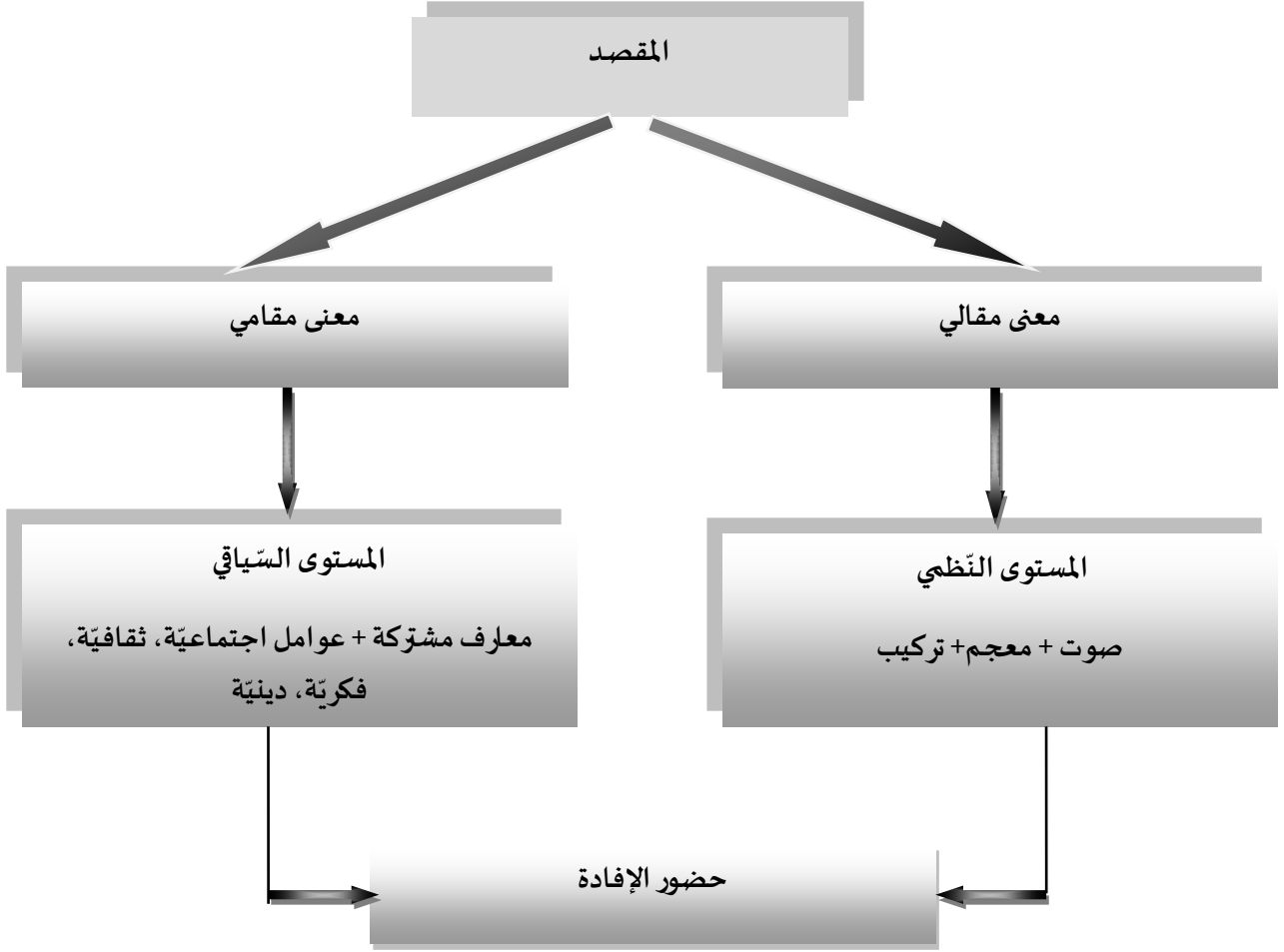
يمكن أن يكون المقصد من إنجاز الفعل الصوتي الإخبار عن التعب، أو يمكن أن يتمثل المقصد في حثّ المستمع على المغادرة والانصراف.

إنّ السياق التواصلي إذن يجمع بين ما توفّره المعطيات اللغوية من أسس وقواعد ومعلومات، وما يمتلكه أطراف التّحاور من معارف خلفية تكون مشتركة بالأساس حتى تكون المحادثة مفيدة وذات مقصد مضبوط. وبذلك تتعاقد هذه العناصر اللسانية مع العناصر المقامية السياقية من أجل المساهمة في بناء تأويل مناسب للملفوظ الذي يثير ما حُزّن في الذاكرة من ناحية، والذي تجتمع في ضبطه جلّ المكونات المشتركة (الاستعمالية التداولية، التنظيمية اللسانية، الأعراف الاجتماعية) من ناحية ثانية. ونمثل للمقصد بالرسم التالي:

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري: "استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية"، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط1، 2004، ص198.

2- ندوة: "قضايا المعنى في التفكير اللساني والفلسفي"، إشراف عبد السلام عيساوي: "مخبر نحو الخطاب وبلاغة التداول"، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، ط1. 2015، ص259.

3- منذر عياشي، مرجع سابق، ص72.



مثال:

- زيد مجرم خطير: معرفة مشتركة بين المتكلم والمخاطب.
- جدت جريمة في محيط مسكنه: ملابسات الخطاب وحيثيات المحاورة.
- من المرجح أنه هو مرتكب الجريمة: الاستنتاج والتأويل طبقاً للمعارف المشتركة والملابسات التي وقع فيها الحدث "جريمة القتل"¹.

يُبنى هذا الاستنتاج إذن من خلال علاقات الانسجام القائمة على ما يحمله المتكلم والمتلقي من معارف يثيرها القول ويحرك ما خزنته الذاكرة منها، ومن ثمة الوصول إلى مقصد المتكلم من المثير القولي. ومن هذا المنطلق يرتبط مقصد المتكلم من خلال نطقه بالألفاظ بالسياق الذي يبين لنا ما يريد المتكلم إبلاغه عن طريق اللغة، وهذا الأمر يدعونا إلى القول إن القوة الإنجازية والمقصد من الكلام يرتبطان أولاً بالصيغة اللغوية، وثانياً بالسياق وفهم العلاقات الاجتماعية الرابطة بين المتكلم والسماع، التي تنبني على قواعد التواطؤ والتواضع والعرف.

1- حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص53.

إن الخطاب الناجح إذن لا يستطيع أن يحقق مقصده إلا إذا ورد في سياق ما يقتضيه ذلك الموضوع وذلك التّحاور، يقول الأستاذ خالد ميلاد مؤكّدا هذه الفكرة: «لا يكون العمل ناجحا إلا إذا أُنجز في مقام معيّن مناسب للغرض المقصود ومطابق للأعراف الاجتماعية، ومستجيب للشروط النفسية المتّصلة بأطراف الحوار»¹.

وبناءً عليه، يجب أن يناسب الخطاب السّياق التّواصلية الذي أُلقي فيه عبر توظيف أساليب مناسبة لكلّ عمليّة تواصل تجمع بين أطراف محادثة معيّنة، ومن ثمة فقد تمّ اعتبار السّياق في المناويل التّداولية ركيزة أساسية ولاسيما في تأويل القول وبلوغ متضمّناته ومقاصده المطلوبة. وقد تمّ أخيرا اعتبار أنّ المقصد لا يمكن أن نتحصّل عليه أو نبلغه إلا من خلال الرّجوع إلى ملابسات المقال وسياق إلقاء ذلك المقال. يقول "جورج يول (George Yule)" و"جيليان براون (Gillian Brown)" في كتابهما "تحليل الخطاب (Analyse de Discours)": «يتحتّم على محلّل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار السّياق الذي ورد فيه مقطع ما من الخطاب»². ومن أمثلة ذلك:

التلفزة معطلّة:

إنّ سياق الموقف في هذه الجملة هو الذي يحدّد بدقّة قوّتها الإنجازية، فاستحضار الموقف التبليغي يكشف بوضوح ما إذا كان القصد منها فعلا وصفياّ خبرياّ، كأن تكون هذه العبارة مكتوبة بجانب جهاز تلفزة في محلّ بيع، أي أنها ليست للبيع، أو يكون غرضها إنجازياّ، كأن تقول أمّ لولدها الذي جاء مسرعا لمشاهدة مسلسل الرّسوم المتحرّكة المفضّلة لديه، أي لا تشغّلها، أو تقولها زوجة لزوجها الذي له خبرة في مجال الإلكترونيات، وعندئذ يتّضح غرض الجملة، أي "أصلح التلفزة"³.

وبناء على ما تقدّم، فالألفاظ المفردة أو الأشكال النّحوية التركيبيّة لا تكون لها أهميّة إلا حين ترتبط بالسّياق الذي يضعها صاحب النص فيه، وعليه «فالافتاء بالقصد الإخباري انطلاقا من المؤشّرات اللّسانية غير كاف، إنّه بداية الطّريق إلى قصد آخر أعمق هو القصد إلى تغيير المحيط العرفاني (المعرفي) للسامع وهو السّبب الآخر الذي يجعلنا نتواصل»⁴؛ ولذلك كان اهتمام المفكرين بالمعنى المقصود في إطار السّياق والاستعمال كبيرا واحتفاؤهم واضحا، نظرا لأنه يمثل لبّ العمليّة التّواصلية وجوهرها.

ومن أمثلة ذلك:

أ- أنتَ أسدٌ وكلبيّ.

ب- ما هذه النّعوت يا سيّدي، أنا لستُ حيوانا، لماذا تخاطبني هكذا؟

1- خالد ميلاد: "الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: دراسة نحوية تداولية"، نشر جامعة مَنوبة، كلية الآداب مَنوبة، والمؤسسة العربية للتّوزيع، ط1، 2001، ص511.

2- جورج يول وجيليان براون: "تحليل الخطاب"، ترجمة محمّد لطفي الزليطني ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، 1997، ص35.

3- حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص96.

4- عبد السلام عشير، مرجع سابق، ص54.

ج- يا أخي لا تغضب أقصد أنك رجلٌ شجاعٌ¹.

فالتأمل في القول (أ) يلحظ أنه إخبار عن محتوى قضوي (أسد و كلب)، ولكن تبعا للسياق يتضح مقصده الاستلزامي وهو الغاية التي يريدتها المتكلم، فهو طبقا لملازمات الخطاب مدحٌ وتعبير عن مدى شجاعته وقوته ووفائه، «وبتعدد السياقات تتعدد المعاني الضمنية التي تُستنتج من الدلالة اللسانية وما يشير إليه السياق»²، ومثالنا على ذلك:

«عبارة "نهارك سعيد": عبارة تحمل معنى التحيّة، لكنها قد تفيد معاني ودلالات أخرى متى تغيّر المقام التواصلي:

- إنهاء المقابلة/ مغادرة المكان/ التعبير عن الغضب.
- التوبيخ.
- الهزل»³.

ومن هذا المنطلق يُعتبر السياقُ استراتيجيّة مهمّة تبحث في ملازمات إنتاج القول وطرق تقبل المعنى وفهم المقصد، وبذلك مثلت "التداوليّة (Pragmatique)" «نظريّة للسياقات تقوم على رصد ما يكون من تأثير السياق في بناء الكلام وتشكيله على صورة تلوّن وفقا لتلوّن هذا السياق وتنوّعه ابتداء لدى الباث، ثمّ تبين معناه بعد ذلك لدى المتلقّي وفهمه بلا لبس ولا غموض»⁴.

وطبقا لهذه الآراء يشكّل السياق آلية من آليات إنتاج المعنى، ذلك أنّ المعاني النحويّة كثيرا ما تكون قاصرة عن تحديد المعنى الحقيقي المراد تبليغه، إذ أنّ ظاهر القول يختلف عن باطنه، والمصرّح به قد لا يعكس ما أُضمر وأُخفي، واللغة أحيانا تعجز عن التعبير، وبهذا المعنى يبرز دور السياق في الكشف عن المقاصد وإيضاح المعاني، مثال: «تقول الزوجة لزوجها وقد لاحظت عليه أنه أسرف في السهر: "لكّ اجتماع غدًا"، فقول الزوجة يمكن أن يحمّل على التماس المغادرة، كما يمكن أن يُحمّل على التنبيه على الإكثار من السهر أو التحذير والنهي...»⁵.

ومن وظائف السياق منع حدوث غموض في مستوى الإنجاز. فوضع الكلام في سياقه الخاص سيؤدّي إلى الإبقاء على تأويل واحد هو المراد تبليغه والمطابق لذلك السياق، في مقابل إقصاء كلّ الدلالات الأخرى للألفاظ غير الملازمة لملازمات التّحاور. مثال ذلك ما ذكرته "كاترين كيربرات أركيوني" في كتابها "المضمّر (L'implicite)": «إذا ما ذكرتُ رقم لوحة تسجيل سيارتي التي تعرّضتُ لحادث، فهذا أمر جدّ مشروع في حال

1- ندوة: "فضايا المعنى في التفكير اللساني والفلسفي"، إشراف عبد السلام عيساوي، مخبر نحو الخطاب وبلاغة التّداول، كلفة الآداب والفنون والإنسانيات مؤبّة، ط1، 2015، ص395.

2- عبد السلام عشير، مرجع سابق، ص50.

3- ندوة "فضايا المعنى في التفكير اللساني والفلسفي"، مرجع سابق، ص261.

4- حسن خميس الملهخ، مرجع سابق، ص98.

5- شكري المبخوت، مرجع سابق، ص171.

كنتُ أتحدّث إلى الشّخص الذي أمنتُ لديه سيّارتي ضدّ الحوادث، إلاّ أنّ حديثي سيكون على قدر أقلّ بكثير من الملاءمة إذا أتيتُ على ذكر رقم لوحة التّسجيل هذه وأنا أخبر صديقي»¹.

وعلى هذا الأساس فالاستعمال الحقيقي للغة يجعل كلّ قول منجّز في السياق قولاً واضحاً، وهنا تتدخل هذه المعاني الأربعة: القوة والمقصد والسيّاق والمناسبة، فقوة الخطاب تتأتّى من تأدية المقصد المراد، وهذا المقصد المراد يتأتّى من خلال الاستدلال «الذي يبقى عمليّة مرتبطة بالسيّاق»² المرتبط — على حدّ عبارة "فان دايك (Van Dyk)" — بالصّفة أو الميزة الديناميكية المحرّكة. وبهذا المعنى «فالمقام التّخاطبي ليس عاملاً من عوامل الخطاب بل هو الإطار الذي لولاه لما تمكّن الخطاب من أن يُنجز»³. مثال هذا قولنا: هل نسيتَ شراء هديّة لوالدتنا في عيد ميلادها؟

تنتقل هذه الجملة من معناها الحرفي (الاستفهام عن شراء الهدية) إلى معانٍ ثوان، مرتبطة بمناسبة معيّنة (عيد ميلاد)، وهنا تتحدّد قوتها الإنجازية طبقاً لهذه المناسبة أو السيّاق، فتُحيل على دلالة استلزامية هي المقصودة وتتمثّل في معنى "اللّوم والتّقريع والتّوبيخ..."، يقول "جورج يول (George Yule)" في كتابه معرّف التداولية (La pragmatique): «هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلّم أي دراسة المعنى السيّاق»⁴.

والذي استقرّ لنا ممّا سبق أنّ العامل الأساسي المحدّد للمقصد إنّما هو السيّاق (Contexte)، إذ لا بدّ لنا من الاستعانة بالجانب التداولي الاستعمالي في اللغة إلى جانب المستوى النّظمي التّركيبي وربط كلّ ذلك بالظّروف والملابسات والمواقف التي تندرج ضمنها المحاور. فالخطاب إذن لا يأخذ قيمته إلاّ ضمن العمليّة التّفاعليّة بين المتكلّم والسّامع، والمقاصد هي الأرضيّة التي يُبنى فوقها الخطاب، وهذا الأمر أكّدته "فرانسواز أرمينكو" معرّفه السيّاق بقولها: «ونقصد به الوضعيّة الملموسة التي توضع وتنطبق من خلالها مقاصد تخصّ المكان والزّمان وهويّة المتكلّمين وكلّ ما نحن في حاجة إليه من أجل فهم وتقويم ما يُقال... ومفهوم الإنجاز ونقصد به إنجاز الفعل في السيّاق»⁵، ومن ثمّة «فإنّ المدلول الحرفي لقول ما يتوقّف دائماً على السيّاقات»⁶. ويتوقّف إدراك المقاصد عموماً على مدى انسجام المتكلّم مع السيّاق التّحادثي، وعلى مدى انتباه المخاطب لهذا الانسجام، وفي هذا المجال اقترح غرايس (Grice) مبدأً عامّاً منظّماً للتّواصل وسّمّه بـ "مبدأ التعاون" الذي يساهم في بناء استلزامات حوارية مناسبة طبقاً للسيّاق الذي جاء فيه الكلام.

وفي هذا الإطار نستحضر هذا المثال الذي وظّفته أركيوني في كتابها "المضمّر (L'implicite)" إذ تقول: «يهوي الذّهبُ تحت الحديد:

1- كاترين كيربرات أركيوني: "المضمّر"، ترجمة ريتا خاطر، المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت لبنان، ط1، 2008، ص391-392.
2- جورج يول وجيليان براون، مرجع سابق، ص318..

3- Gardiner. A. H.: "Langage et acte de langage: Aux sources de la pragmatique", traduit par Catherine Doway, Press universitaires de Lille, 1989, p50.

4- جورج يول: "التداولية"، ترجمة قصي العتّابي، الدّار العربيّة للعلوم، ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص19.

5- فرانسواز أرمينكو: "المقاربة التداولية"، ترجمة سعيد علّوش، مركز الإنماء القومي، د.ت. ص9.

6- أمبرتو إيكو: "السيميائية وفلسفة اللغة"، ترجمة أحمد الصّمعي، المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت-لبنان، ط1، نوفمبر 2005، ص134.

في إطار السّياق لا يتناسب هذان المحسّنان البيانيان، المرشّحان على التّوالي إلّا مع الاستعارة (التي تتجلّى في كلمة "Le blé / القمح") وكناية استعمال المادّة للدّلالة على الآلة التي تصنع منها (التي تتجلّى في كلمة "la fause/الحاصدة")¹.

وفي كثير من الأحيان يكون السّياق ثقافيًا قائمًا على مرجعيّة دينيّة وخاضعًا لتعاقد اجتماعي وعرفي، وهو ما أكّده فلاسفة اللّغة "أوستين" و"سورل" حين ربطا بين المقصد والعُرف أو المناسبات المخصوصة مثال:

«أنتِ طالقُ: فهذه الجملة قد تكون فعلاً لغويًا ناجحًا يترتب عليه إنجاز فعل الطلاق فعلاً في المجتمعات الإسلاميّة ذات المرجعيّة الدينيّة الإسلاميّة»².

5- الخلاصة:

عموم موقفنا من هذه الآراء أنّ السّياق أو حال الخطاب (Situation de discours) مهمّان في ضبط القوّة الإنجازيّة للقول وتحديد مقصده المناسب، وكلّ ما نلتفّظ به يجد ما يبرّره عند المتحاورين. وهذا التّبرير يضطلع به مبدأ المناسبة من خلال إحكام العلاقة بين القوّة والمقصد والسّياق والتأويل، وصولاً إلى تحقيق الخطاب لغاياته المقصودة نظراً لكونه في نهاية الأمر يهدف إلى الإقناع والمحاورة في موقف ما. ولن يتحقّق هذا الحجاج إلّا من خلال تلاحم هذه المفاهيم الأربعة (القوّة، والمقصد، والسّياق، والمناسبة) المساهمة في بناء استدلال مناسب وتأويل مخصوص وفرضيّة محكمة تتطلّبها عمليّة التّحاور والسّياق «الذي يُفهم على أنحاء مختلفة كأن ندرج مثلاً الوجوه المناسبة لمجموع محيط التّجارب الماديّة أو المجتمعيّة لتلفّظ ما، وساعتبر السّياق كما لو كان أيّة معرفة محيطيّة بهذه التّجارب مما يتقاسمه كلّ من المتكلّم والمخاطب والتي تسهم في تأويل ما يقصده المتكلّم بأيّ تلفّظ لعبارة ما»³ - على حدّ عبارة الأنقليزي جيوفري ليتش (Geoffrey Leech)، مثال:

«عُرفة زيد زريبة خنازير:

المعنى الأوّل: المعنى الحرفيّ، والمعنى الثّاني ما يتأوّل المرسل إليه من القصد الحقيقي وراء الخطاب. وهذا الاستعمال التداولي للخطاب يتطلّب كفاءة وقدرة تداوليّة لدى المؤلّ⁴. وهنا بالأساس تكمن أهميّة المنهج التداولي الذي يركّز على دراسة الجوانب الذاتيّة والتواصلية للخطاب وفقاً للسّياق ونوعيّة العلاقة القائمة بين المتكلّم والمخاطب حتى تتضح المقاصد. وهذا المفهوم (المقاصد) تتقاطع فيه التداوليّة وفلسفة اللّغة وعلم النّفس والعلوم العرفانيّة القائمة على الاستدلال والتأويل.

1- كاترين كيربرات أريكيوني: "المضمر"، مرجع سابق، ص 493.

2- حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص 96.

3- جيوفري ليتش: "مبادئ التداولية"، ترجمة عبد القادر قيني، أفريقيا الشرق المغرب، 2013، ص 24.

4- مجموعة من الأكاديميين: "فلسفة اللّغة: قراءة في المنعطفات والحديث الكبرى"، إشراف اليامن بن تومي، ابن التّديم للنّشر، دار الرّوافد الثقافيّة ناشرون، ط 1، 2013، ص 41-42.

6- قائمة المصادر والمراجع:

باللغة العربية والمترجمة:

- 1- القرآن الكريم.
- 2- أركيوني (كاترين كيربرات): "المضمر"، ترجمة ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ط1، 2008.
- 3- أرمينكو (فرانسواز): "المقاربة التداولية"، ترجمة سعيد علّوش، مركز الإنماء القومي، د.ت.
- 4- أوستين (جون): "كيف ننجز الأشياء بالكلام؟"، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، 1991.
- 5- أولمان (ستيفن): "دور الكلمة في العربية"، ترجمة كمال محمّد بشر، مكتبة الشّباب، جامعة القاهرة (د.ت).
- 6- إيكو (أمبرتو): "السيميائية وفلسفة اللغة"، ترجمة أحمد الصّمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان، ط1. نوفمبر 2005.
- 7- باديس (نرجس): "المشيرات المقامية في اللغة العربية"، مركز النشر الجامعي، منوبة-تونس، 2009.
- 8- ريبول (آن) وموشلار (جاك): "القاموس الموسوعي للتداولية"، ترجمة مجموعة من الأساتذة بإشراف عز الدين المجدوب، مراجعة خالد ميلاد، المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا تونس، 2010.
- 9- الشهري (عبد الهادي بن ظافر): "استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداولية"، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت لبنان، ط1، 2004.
- 10- عبد الواحد (عبد الحميد): "الكلمة في اللسانيات الحديثة"، التّفسير الفنّي صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، ط1، 2007.
- 11- عشير (عبد السلام): "عندما نتواصل نغيّر: مقارنة تداولية معرفية لآليات التّواصل والحجاج"، إفريقيا لشرق، الدّار البيضاء المغرب، ط2006.
- 12- علوي (حافظ إسماعيلي): "التداوليات: علم استعمال اللغة"، عالم الكتاب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2011.
- 13- عيّاشي (منذر): "العلاماتية وعلم النصّ"، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء-المغرب، ط1. 2004.
- 14- ليتش (جيوفري): "مبادئ التداولية"، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق المغرب، 2013.
- 15- المبخوت (شكري): "دائرة الأعمال اللغوية: مراجعات ومقترحات"، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط1، 2010.
- 16- مجموعة من الأكاديميين: "فلسفة اللغة: قراءة في المنعطفات والحديثيات الكبرى"، إشراف اليامن بن تومي، ابن النّديم للنشر، دار الرّوافد الثّقافية ناشرون، ط1، 2013.
- 17- الملمخ (حسن خميس): "التداولية: ظلال المفهوم وآفاقه"، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1. 2015.

- 18- ميلاد (خالد): "الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: دراسة نحوية تداولية"، نشر جامعة منوبة، كلية الآداب منوبة، والمؤسسة العربية للتوزيع، ط1، 2001.
- 19- ندوة: "قضايا المعنى في التفكير اللساني والفلسفي"، إشراف عبد السلام عيساوي: "مخبر نحو الخطاب وبلاغة التداول"، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، ط1. 2015.
- 20- يول (جورج): "التداولية"، ترجمة قصي العتّابي، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، ط1، 2010.
- 21- يول (جورج) وبراون (جيليان): "تحليل الخطاب"، ترجمة محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، 1997.

المراجع باللغات الأجنبية:

- 1- Ducrot (Oswald) : "*Les lois de discours on langue française*", édition de Minuit, Paris, n°42, 1979.
- 2- Gardiner. A.H. : "*Langage et acte de langage : Aux sources de la pragmatique*", traduit par Catherine Doway, Press universitaires de Lille, 1989.
- 3- Searle (John. R) : "*Les actes de langage : Essai de Philosophie du langage*", Collection savoir. Hermatan. Paris1972.